في الخامس من أكتوبر... نقف إجلالا للمعلم

بقلم:
د. فاطمة المالكي

لطالما شدتني الأحداث التي تخلّد منجزات الإنسان، وكان قلبي يمتلئ بالشغف للتعبير، ويداي مستعدة للبدء في الكتابة عن يوم يحتفي بمن زرع فينا بذور العلم والمَعرفة، تذكرت معلمتي التي غرسَت فيّ حب التعلم، وكانت كلماتها تشجعني دائمًا في كل مرة أشعر فيها بالتردد أو الخوف، تقول لي: «أرى لك مستقبلا جميلا»، و«استمري في التقدم، سيكون لك شأن كبير»، و«ابدئي من هنا»، كانت لكلماتها التشجيعية أثر كبير في تحول خجلي إلى ثقة، وقلقي إلى إبداع، لقد حفرت في عقلي أثرًا لا يُنسى. واليوم، في الخامس من أكتوبر، يوم المعلم، أتذكرها بكل امتنان، وأجد في هذه المناسبة فرصة لتقدير كل معلم ترك بصمةً خالدة في حياتنا، وألهمنا حب العلم والمعرفة، ليظل رمزًا للنور والإلهام الذي يضيء دروب الأجيال.

في الخامس من أكتوبر من كل عام، تتجه أنظار العالم كله على اختلاف عاداته وأعرافه إلى أصحاب القلوب البيضاء والعقول النيرة، إلى من وهبوا حياتهم لإيقاظ الوعي، وصناعة الإنسان، وبناء الأجيال... إنهم المعلمون، بناة الفكر وحراس القيم، الذين لا يكتفون بتعليم الدروس، بل يغرسون في النفوس بذور المعرفة، ويضيئون في العقول شموع الأمل.

يوم المعلم ليس مجرد مناسبة عابرة في التقويم، بل هو محطة للتأمل في أثر المعلم العظيم في حياتنا، فمن منا لا يذكر معلمًا آمن به حين شكّ في قدراته؟ ومن منا لا يتذكر يدًا وضعت على كتفه بحب وحنان لتقول له: «أنت تستطيع»؟ «أنت قادر»، تلك اللحظات الصغيرة التي قد لا يدرك المعلم قيمتها، كانت في حياة كثيرين الشرارة الأولى نحو النجاح، والنبراس الذي أنار لهم دروب المستقبل.

في هذا اليوم، تُرفع القبعات احترامًا من حمل رسالة التعليم بإخلاص، وغرس فينا حبّ التعلم، وربّى فينا الفضيلة والانتماء.

هو يوم لنقول فيه لكل معلم: «شكرًا لأنك آمنت بنا حين لم نؤمن بأنفسنا، وشكرًا لأنك زرعت فينا الأمل، وشكّلت ملامح أحلامنا، وكنت لنا نورًا في درب الحياة».

فلنقف اليوم وقفة فخر واعتزاز، ولنرفع التحية إلى كل معلم في مدرسته أو جامعته أو فصله أو ميدانه، نُرسل له رسالة حب وتقدير تقول:

«يا من علمت الحرف فصنعت الفكر، يا من غرست القيم فأثمرت الأجيال، لك منا كل الوفاء والعرفان»

ولأن العالم أدرك عظمة هذا الدور وتأثيره، فقد خصصت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) يوم الخامس من أكتوبر عام ١٩٩٤ ليكون يومًا عالميًا للمعلم، تخليدًا لتوقيع التوصية المشتركة بين اليونسكو ومنظمة العمل الدولية عام ١٩٦٦ بشأن أوضاع المعلمين وحقوقهم ومسؤولياتهم، ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا اليوم فرصة للتذكير بأهمية مهنة التعليم، وضرورة دعم المعلمين وتمكينهم من أداء رسالتهم النبيلة في ظل تحديات العصر.

لقد تغيّر وجه التعليم في العقود الأخيرة، وظهرت ثورة رقمية غيرت أساليب التدريس والتعلّم، ومع ذلك ظل المعلم هو المحور الرئيس في هذه المنظومة، فالمعلم اليوم لم يعد ناقلًا للمعرفة فقط، بل أصبح قائدًا تربويًا، ومرشدًا نفسيًا، ومصممًا للتجارب التعليمية التي تنمّي مهارات التفكير النقدي والإبداعي لدى الطلبة، إنه من يواكب التحوّل من التلقين إلى التفاعل، ومن الحفظ إلى الفهم، ومن المعرفة إلى المهارة.

وفي عالم سريع الإيقاع، يتطلب من المعلم أن يكون متعلمًا مدى الحياة، متجددًا في أدواته، منفتحًا على التغيير، قادرًا على دمج التكنولوجيا بروح إنسانية، تحافظ على جوهر التعليم الذي هو بناء الإنسان لا تعبئته بالمعلومات. ولذا، فإن دعم المعلم بالتدريب المستمر، وتقدير مكانته الاجتماعية والمهنية، هو الاستثمار الحقيقي في مستقبل المجتمعات والأمم.

ومن هنا تأتي أهمية أن يلتف المجتمع بمؤسساته وأفراده حول المعلم، فيقدّر جهده، ويستمع إلى صوته، ويشاركه في بناء بيئة تعليمية آمنة ومحفزة، فالمعلم ليس وحده في الميدان، بل هو جزء من منظومة متكاملة تحتاج إلى تعاون الطالب والمدرسة والأسرة والمجتمع والمؤسسات لتحقيق الرسالة السامية للتعليم.

وفي الختام، يبقى يوم المعلم مناسبة نُجدّد فيها عهد الوفاء، ونرفع فيها كلمات الامتنان الصادق لكل من كان له في حياتنا بصمة لا تُنسى، فلنكتب اليوم على صفحات قلوبنا قبل دفاترنا:

«شكرًا معلمي»، فهي الكلمة التي تختصر حكاية عمر من العطاء، ومسيرة من الإلهام، ونور لا ينطفئ. كما في قول الأديب مصطفى الرافعي: «المعلم هو الشعلة التي تضيء الدروب المظلمة، وتمنح الناس بصيرة لا تنطفئ».

ولعل في حكمة سقراط ما يلخّص رسالة التعليم بأبهى صورها، إذ قال: «المعلم ليس من يملأ أوعية العقول، بل من يشعل فيها نار التفكير».

هكذا يظل المعلم رمزًا للنهضة، وصوتًا للعقل، ورسولًا للمعرفة، يستحق أن يُكرّم كل يوم، لا في الخامس من أكتوبر فحسب، بل في كل لحظة تنبض بالامتنان، كما خبرنا بذلك الأديب جبران خليل جبران حين قال: «إذا أعطى المعلم حبًا وتقديرًا، أخرج للعالم نفوسًا محبه للعلم والحياة».

العلاقات البحرينية الروسية بعد ٣٥ عاما من التبادل الدبلوماسي

بقلم:
د. نبيل العسومي

تصادف هذه الأيام الذكرى الـ٣٥ على إقامة العلاقات الدبلوماسية بين مملكة البحرين وروسيا الاتحادية بعد توقيع اتفاقية إقامة العلاقات الدبلوماسية الكاملة بين البلدين الصديقين في مدينة نيويورك الأمريكية بين سمو الشيخ محمد بن مبارك آل خليفة وزير الخارجية آنذاك وإدوارد شيفرنادزه وزير خارجية الاتحاد السوفيتي آنذاك على هامش مشاركتهما في اعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة لتبدأ مرحلة جديدة من التعاون الثنائي بين البلدين الصديقين، قائم على الاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية وتنسيق المواقف حول القضايا الإقليمية والدولية وفق المصالح المشتركة.

وإذا ما استعرضنا هذه العلاقة على مدار الخمسة وثلاثين سنة الماضية نجد أنها شهدت تطورات إيجابية كبيرة تصب في خانة المصالح العليا لمملكة البحرين وروسيا الاتحادية وشعبيهما الصديقين كترجمة لتوجيهات القيادتين في كلا البلدين والتي جسدتها الزيارات الرسمية التي قام بها حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك مملكة البحرين المعظم أيده الله لروسيا الاتحادية ولقاءاته مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين سواء في مدينة سوتشي أو موسكو والتي أسهمت في تعزيز علاقات الصداقة والتعاون بين مملكة البحرين وروسيا الاتحادية في مختلف المجالات وذلك في إطار نهج السياسة الخارجية البحرينية القائم على إقامة علاقات متوازنة مع مختلف دول العالم على حد سواء وفق المصالح المشتركة والقوانين والأنظمة الدولية ومبادئ وقيم منظمة الأمم المتحدة للمحافظة على السلام والاستقرار في العالم، وزيارة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن حمد بن عيسى آل خليفة ولي العهد رئيس مجلس الوزراء حفظه الله ورعاه لروسيا الاتحادية ولقاءاته مع كبار المسؤولين بروسيا والتي أسهمت في شبك المصالح الثنائية من خلال إبرام العديد من الاتفاقيات لتنشيط التعاون الاقتصادي والتجاري والاستثماري والثقافي وغيرها من المجالات بين المنامة وموسكو.

كما أسهمت زيارات الدكتور عبداللطيف بن راشد الزياني وزير الخارجية لروسيا الاتحادية والسيد سيرغي لافروف وزير خارجية روسيا الاتحادية للبحرين في تعزيز علاقات الصداقة بين البلدين الصديقين وتبادل وجهات النظر حول العديد من القضايا الإقليمية والدولية والتي تشغل بال العالم أجمع، مثل الإرهاب والتطرف والمناخ والحروب والصراعات وانتشار الأسلحة بما فيها الأسلحة النووية.

ولا شك أن افتتاح خط مباشر للطيران قبل أكثر من عشر سنوات بين المنامة وموسكو لطيران الخليج الناقلة الوطنية لمملكة البحرين وزيادة الرحلات لتصبح رحلة يومية أدى إلى تعزيز السياحة بين مملكة البحرين وروسيا الاتحادية خصوصا في ظل التسهيلات التي قدمتها مملكة البحرين للسائح بحيث يحصل على الفيزا في المطار مباشرة عند الوصول وحصول السائح البحريني على التأشيرة الإلكترونية مدة شهر عند زيارة روسيا ما أدى إلى زيادة عدد السواح سواء من روسيا إلى البحرين أو العكس حتى أصبحت روسيا هذا العام الوجهة السياحية الأولى بالنسبة إلى السائح البحريني للاستمتاع بالأجواء الروسية اللطيفة خلال الصيف ومستوى الأمان وترحيب المواطن الروسي بزوار بلاده واحترامه لهم وتقديم كافة أنواع المساعدة للسياح، حيث زار روسيا خلال الصيف الماضي المئات من البحرينيين كما يعيش في البحرين بصورة دائمة أكثر من ثلاثة آلاف روسي يستمتعون بالامتيازات التي تقدمها مملكة البحرين للمستثمرين الأجانب.

وتلعب اللجنة البحرينية الروسية للتعاون الاقتصادي والعلمي والتجاري والتكنولوجي دورا مهما في تبني مختلف المشاريع الثنائية بإسهام القطاع الخاص في البلدين.

وإذا ما جمعنا كل ما تقدم يمكننا أن نستنتج بكل سهولة أن التعاون البحريني الروسي يسير نحو افق أوسع وفق توجيهات القيادتين الحكيمتين كما أسلفنا وأن المستقبل سوف يشهد المزيد من التعاون الثنائي في ظل وجود الرغبة البحرينية الروسية الأكيدة للسير بهذا التعاون نحو المزيد من التطور والتنسيق.

وعليه ونحن نحتفل بالذكرى الـ٣٥ لإقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين نتمنى كمواطنين بحرينيين إلغاء متطلبات الفيزا عن مواطني البحرين الراغبين في زيارة روسيا الاتحادية كما حدث بالنسبة الى مواطني بعض الدول الخليجية.

حكاية علي بابا من منظور الأربعين حرامي

بقلم:
د. زكريا الخنجي

يعرف الجميع حكاية عليّ بابا؛ فهذا الفتى استطاع بطريقة ذكية أن يسرق من الأربعين حرامي الذي فسدوا وبطروا في الديار وسرقوا من الأموال الكثير، فأخذ كل تلك الأموال أو ربما الكثير منها وأعاد توزيعها على أهالي المدن التي تمت سرقها طوال كل تلك الأعوام.

هذه الحكاية معروفة لدى الجميع، وهي التي وردت في قصص ألف ليلة وليلة، ولكن ماذا يحدث إن حكى أحد اللصوص وقطاع الطريق الحكاية من وجهة نظره هو، ترى ماذا يمكن أن يقول؟

نروي الحكاية على لسان (شايلوك)، الذي يقول: كنتُ طبيب الأميرة، وتم اتهامي بدس السم في طعام الأميرة، فماتت، «ويمكن أن أحلف اليمين أنني لم أقم بذلك»، وأثناء محاكمتي تمكن بعض أفراد عائلتي من تهريبي خارج المدينة التي كنت أسكن فيها.

فخرجت أمشي حتى بلغتُ كهفًا في وسط الصحراء وبين الجبال، فدخلتُ، وإذ بي أرى هناك رجلًا مسنًا يعيش في هذا الكهف، فرحب بقدومي وقدم لي الطعام والماء، ولكني لم أتمالك نفسي فقتلته، وأقسم أنني لم أقتله غدرًا وإنما كنت محتاجًا إلى هذا الكهف أكثر منه، فأنا إنسان تم طردي من مدينتي، فمن أولى بالكهف أنا أم هو؟ أنا طبعًا، فليذهب هو إلى الجحيم، فكل هؤلاء البشر لا يستحقون الحياة. تمكنت بعد ليال من إشعال النار ببعض المواد التي حملتها معي وأنا هارب من المدينة. جلست في الكهف عدة أيام أفكر في مستقبلي، وكيف يمكنني أن انتقم من تلك المدينة التي ظلمتني وظلمت تاريخي وأهلي، وتكرهني كل هذه الكراهية.

ولكن للحقيقة والتاريخ أقول: إنني وضعتُ السم في طعام الأميرة، ولكن لم يكن في نيتي قتلها، فقد تمت رشوتي من كبير التجار انتقامًا من الأمير، وأنا كنت مجرد منفذ فقط، أما المجرم الحقيقي فهو كبير التجار الذي من المفروض أن يعاقب هو، وليس أنا.

قلبي يحترق من الغضب والقهر والظلم.

يقول (شايلوك): بقيتُ في الكهف عدة أيام، وبعد أيام، إذ برجل غريب يجر خلفه حصانا ويحمل على حصانه متاعا وربما طعاما، فاختبأت حتى لا يراني، وعندما غفل الرجل، انقضضت عليه وقتلته، وأخذت متاعه وحصانه، وأقسم أنني لم أقتله لرغبتي في قتله وإنما انتقامًا من أهل المدينة، وكذلك حتى أحظى بالطعام والزاد والماء فقط.

وتمر الأيام، وإذ برجل من قطاع الطرق يدخل الكهف وبيده أكياس من الأموال والذهب، ويقول لي: كنت أراقبك منذ عدة أيام، وخاصة بعدما هربت من أهل المدينة، وعندما قتلت صاحب الكهف والرجل الآخر، درست سلوكك الإجرامي الخبيث، وسرني ما رأيت، واليوم أنا أحمل ما استطعتُ من أموال وذهب سرقتها من أهل المدينة الذي ظلموك وجئت مهاجرًا إلى هذا الكهف الذي من المفروض أن يكون مقرًا لك ولي ولأمثالنا من الشرفاء الذين يحاربون الظلم والإرهاب.

يقول شايلوك: لم أعرف ماذا أقول في البداية، ولكنها لحظات حتى استوعبتُ كلامه، فقلت له: هل هناك الكثير من أمثالنا الشرفاء في المدينة أو المدن المحيطة؟

قال الرجل: أكيد، هناك الكثير والكثير من الرجال في ذلك العالم الذي لا يرحم الضعفاء، كل الذي علينا أن ندعوهم إلى هذا الكهف، أو لنقل هذا الوطن السحري الجميل الرائع، والذي من خلاله سوف نتمكن من السيطرة على بقية المدينة المحيطة، حينئذ سيركعون بين أقدامنا ويبكون أن نعفو عن ظلمهم ومجازرهم ضدنا وضد عشيرتنا وأهلنا.

يقول شايلوك: استحسنت الفكرة، ولكن كان هناك سؤال يخطر في بالي، فقلت للرجل: ومن سيكون قائد كل هؤلاء الشرفاء الذين سيأتون للعيش في هذا الوطن؟

قال الرجل: من الطبيعي أن تكون أنت، فأنت مؤسس هذا الكهف، أسف أقصد هذا الوطن.

يقول شايلوك: وبالفعل، ومنذ هذه اللحظة بدأنا نفكر في كيفية الإغارة على المدينة الظالمة الجاحدة، وبقية المدن الأخرى القريبة، ونجمع الرجال المظلومين التي لفظتهم المدنية والحضارة والفكر النير، وبدأ عددنا يتزايد. وكنا لا نأخذ من المدن إلا النقود والذهب والفضة وكل ما هو ثمين، وكنا في بعض الأحيان نقتل الأفراد، ولكن أقسم اننا لم نكن نقتل أحدا من أجل المتعة والرغبة في القتل، وإنما للضرورة القصوى، وحتى الأطفال والنساء الذي ماتوا وتم قتلهم على يد رجالنا كانت خسائر الحروب الجانبية، وهذه الأمور تحدث دائمًا، ولكنها للضرورة فقط.

تجمعت لدينا الأموال والذهب والثروات، فقمنا بتوسعة الكهف، أو الوطن كما أطلقنا عليه، وأصبح لدينا خبراء في المتفجرات، والقتل الجماعي، والأسلحة، حتى إنه التحق بنا عدد من النساء، فحدث تزاوج بين الأفراد، وكانت تقام سهرات بريئة في الليالي المقمرة، وعشنا حياتنا كما نريد.

فأصبح لدينا وطن بالفعل، لدينا قوانينا وأنظمتنا الخاصة، وأعمالنا، وتم تقاسم الأعمال، لدرجة أنه لم أكن أخرج أنا للإغارة على المدن، فأنا الزعيم، وكان لدينا حرس للحدود، يقتلون كل من يقترب من حدود وطننا إلا من يأتي ليكون ضمن هذا الفريق الرائع الخارج على قوانين الإرهاب والظلم، ولقد عينا بعض الأفراد ليقيّموا الراغبين في الانضمام إلى هذه الدولة المارقة على الإرهاب، وكان الفحص يتكون من مجموعة من الأسئلة التي تبين مدى مقت هذا الرجل للمدينة التي كان يعيش فيها، ولماذا يريد أن يتركها، وما الجريمة التي اتهم بها وهو لم يقم بها، فهذا الرجل قتل ولي نعمته، وذلك اغتصب زوجة سيده، والثالث سرق أموال بعض التجار، وهكذا كانت مؤهلات الرجال والنساء، فهي لا تتعدى مثل هذه الجرائم التي الصقت بهم، وهم في الحقيقة شرفاء لم يقوموا بذلك إلا للضرورة القصوى بسبب أنه وقع عليهم ظلم كبير، فما كان منهم إلا أن يقوموا بهذه الأفعال حتى يستردوا حقوقهم.

واستمرت حياتنا - كما يقول شايلوك - سنوات وسنوات هادئة وجميلة ونحن ننعم بكل هذه الأموال وهذه الدولة الجميلة.

ولكن ذات يوم لحق شاب يدعى (عليّ بابا) - وهو حطاب، إنسان بسيط - بأحد رجالاتنا من غير أن يشعر، ووقف بعيدًا، ومن بعيد كان يراقبنا من غير أن نشعر به، وجلس في مكانه هناك لأيام عديدة، وهو يشاهد الرجال يخرجون للإغارة ويعودون بالذهب والأموال، وفي الليل كان يراقب حفلاتنا الرائعة التي تتم من غير حدود أخلاقية ولا قيود القيم، وفي الحقيقة كنا بعد كل إغارة نحتفل ونشرب حتى الثمالة، وفي الكثير من الليالي نفقد الوعي من لذة الحياة.

وذات ليلة كما هي العادة، شربنا وشربنا، وبدأنا نتساقط واحدا تلو الآخر، ولم يبق أحد يحرس الدولة والوطن، فقد عشنا سنوات في أمان، فلماذا نحرس؟ لا يوجد خطر.

في تلك الليلة اقترب ذلك الشخص المعروف عند بقية البشر باسم (عليّ بابا)، من مدخل الكهف، فهاله كل هذا الذهب المتناثر هنا وهناك، والأموال، وكل شيء، فذهب يبحث ويسير من غير أي خوف، فقد كان الجميع في غفلة، فأخذ حفنة من الذهب والأموال، حفنة صغيرة حتى لا يشعر به أحد، ثم خرج من الكهف وغادر.

عندما استيقظنا في الصباح لم نشعر بشيء، فقد كنا في غاية النشوة والمتعة، ولكن أحد الرجال شعر أن هناك أمرا غريبا، إلا أننا لم نرغب في سماعه، فمن يجرؤ بعد كل هذه السنوات أن يقترب من دولتنا؟

وبعد عدة أسابيع وشهور، عاد (عليّ بابا) وبدأ يترصد، من غير أن نشعر، وفي ذات ليلة بعد أن ثملنا وفقدنا الوعي تماما، اقترب عليّ بابا من الوطن، ولكن هذه المرة كان يجر خلفه قافلة مكونة من عشرة من الأبل، أدخلها كلها الكهف، وبدأ يسرق ما استطاع من الذهب والفضة، وهرب بكل ذلك الحمل، واختفى ذلك المجرم.

وعندما استيقظنا اكتشفنا الخيانة، وذلك الجرم وتلك السرقة، فصاح الرجال والنساء: «هذه الأموال ملكنا، وحقنا التاريخي، فكيف تُسرق؟ ومن سرقها؟ نحن من ظلمتنا الحضارة، والآن تسرق أموالنا...».

واستمر الصياح والألم والبكاء.

اجتمعت بالرجال والحكماء، فقررنا أن نبحث عن السارق في المدن القريبة، وبالفعل، دخلنا المدن بطريقة هادئة ومن غير أن يعرفنا أحد، وتم البحث والتقصي، وبعد أشهر عرفنا أن السارق هو (عليّ بابا)، فقررنا قتله في منزله في الليل.

وضعنا على منزله إشارة بهدف تحديد المنزل، حتى عندما يرجع الرجال في الليل من أجل قتله يعرفون المنزل، فيغيروا عليه ويقتلونه، ولكن في الليل وعندما عاد الرجال وجدوا أن كل المنازل عليها نفس تلك العلامة التي تم وضعها على منزل علي بابا، فضيع الرجال المنزل.

حاولنا عدة محاولات، ولكن اكتشفنا أن بعد مرور الزمن أن الأهالي كانوا مستعدين لنا ولخططنا، فكلما كنا نضع خطة، كانوا يحاولون إفسادها، فلم نتمكن من قتل علي بابا، وكذلك لم نتمكن من الإغارة على تلك المدينة لأنها كانت دائمة مستعدة لنا.

وأثناء كل هذه المحاولات كان الرجال يتساقطون قتلى، أو أسرى، حتى عدنا حفنة من الرجال، وذات يوم تمت محاصرة الكهف، وتم القبض علينا، وحكم علينا كخارجين على القانون، فتمت إدانتنا وحكم علينا بالموت.

وفي الليل وأنا أنتظر الإعدام جلست أفكر، لماذا يكرهوننا كل هذه الكراهية، ماذا فعلنا؟ نحن لم نطالب إلا بحقنا الشرعي في التحرر من الإرهاب؟ تم قهرنا وقتلنا وربما سحلنا، نحن نقدم لهم الحرية والديمقراطية ونور الحضارة، ربما يتهمنا بعضهم أننا خرجنا على القانون، حسنٌ، وماذا يعني ذلك؟ نعم لقد قتلنا النساء والأطفال، ربما يتعدى عددهم بضع ملايين ولكنهم خسائر جانبية، وذلك أثناء معاركنا التي كنا نخوضها لتحرير البشرية ضد الإرهاب؟ ماذا يعني إن سرقنا الأموال والذهب وثروات الناس، لا شيء مجرد أشياء لا يستحقها غيرنا، أه من كل هذا الجحود وهذا العصيان.

غدًا سأموت وسيرفع اسم (علي بابا) كبطل قومي.

أرجو أن تكون القصة ممتعة، إذ إنها غير حقيقية، ولكن ربما تكون واقعية.

Zkhunji@hotmail.com

السياسة الأمريكية في زمنِ العدالة الغائبة

بقلم:
د. طارق عباس ○

إن عنجهية إسرائيل وتصلب مواقفها ناتج عن تراجع تأثير العرب وضعف دورهم، وإصرارها على العربدة ينبع من صمت العرب تجاه هذه الأعمال العدوانية. ما قامت به إسرائيل من انتهاك لسيادة قطر بهجومها على قيادات حماس الموجودة هناك وبضوء أخضر أمريكي يعكس تمسكها بسياسة العربدة التي تقوم على لغة القوة في التعامل مع العالم العربي. لذلك هي جريئة فيما تُقدم عليه في كل زمان ومكان. يكفي الإشارة إلى أنها في يوم واحد شنت هجمات على جنوب لبنان وسوريا واليمن وقطاع غزة والضفة الغربية، وألحقت أضرارًا بالغة، دون خوف أو تردد، ودون اعتبار لأي رد فعل عربي شعبي أو رسمي.

لا شك أنه لولا الولايات المتحدة لما تجرأت إسرائيل على ما فعلت؛ فلولا دعمها لما استقوت إسرائيل ومارست جرائمها جهارًا نهارًا. لولا الولايات المتحدة لما انتهكت إسرائيل القانون الدولي وقامت بعمليات إعدام جماعي وسفك الدماء في أماكن متعددة، وتجاوزت كل الخطوط الحمراء باسم تحقيق ما تدعيه من أمن وسلام. لولا الولايات المتحدة لما قُتل في غزة أكثر من ٦٤ ألف فلسطيني، غالبيتهم مَن النساء والأطفال وكبار السن وذوي الاحتياجات، ولما حُوصروا وهُجّروا وعانوا من العطش والجوع وتهاوت فوق رؤوسهم المساكن والمدارس والمساجد والكنائس والمستشفيات التي تدمرها إسرائيل. إن صمت الولايات المتحدة عن ذلك يخليها من المسؤولية؛ فصمتها هو مشاركة وموافقة.

رغم ادعاء واشنطن الاهتمام بشراكات استراتيجية مع الدول العربية وعلاقات وثيقة معها، فهي في حقيقة الأمر لا تقيم للعرب وزنًا وتضع مصالحهم أحيانًا تحت أقدام تل أبيب. أي خطر يمس إسرائيل يُعتبر غير مقبول على الإطلاق، حتى وإن مسّ العرب؛ فتتوالى الإدانة وتصريحات الشجب الأمريكية، فيما يُستخدم الفيتو إذا تعلق الأمر بإسرائيل. تصريحات مثل ما صرح به ترامب بأنه «لم يكن على علم بما جرى وليس سعيدًا به» حين تم الاعتداء على قيادات حماس في قطر، تعكس استخفافًا وتملصًا من المسؤولية، فإسرائيل لا تقدم على خطوة إلا بعلم داعميها. لذلك فالنفي متناقض مع الواقع.

السياسات الأمريكية الظالمة والمنحازة لمصالحها تشجع إسرائيل على التمادي في العدوان وتجعل الحديث عن السلام في الشرق الأوسط أمرًا بعيد المنال. تلك السياسة تفتقر إلى أهم ركائز السلام: العدالة. لا يمكن الحديث عن سلام حقيقي في ظل علاقات دولية تُبنى على تفوق طرف على حساب إضعاف الأمة العربية والإسلامية، التي تُعامل في كثير من الأحيان كتهديد محتمل بدلًا من أن تكون شريكًا في بناء الحضارة وجني المكاسب المشتركة التي تتيح للجميع حق التطور والتنمية والمساواة في سبل الوصول إلى تلك الأهداف المشروعة.

لا يتحقق الاستقرار العالمي بالإقصاء ولا بتحجيم فرص النهضة لدى الشعوب المستضعفة. كلما لاحت بوادر ظهور قوة عربية أو إسلامية متميزة، بادرت الولايات المتحدة، ومن خلفها إسرائيل والدول الغربية، إلى محاصرتها وتقويض فرص ازدهارها، ليس لأنها تهدد الأمن حقًا، بل لأنها تخرق صورة الهيمنة الأحادية التي يريدها الغرب مستقرة وخالية من المنافسة. ومن المؤسف أن يكون الخوف منصبًا على أمن إسرائيل فقط لا على أمن الشعوب، وهذا ما يحدد سياسات واشنطن في المنطقة. وإن كان السلام في نظر أمريكا مرادفا لسكوت الآخرين وقبولهم بالأمر الواقع، فذلك ليس سلامًا بل استسلامًا مؤقتًا يولد كراهية وحقدًا عميقين في وجدان أجيال مقبلة.

لقد أضعفت هذه السياسة سمعة الولايات المتحدة، وتآكلت الثقة بها داخل الشرق الأوسط، ونمت لدى البعض مشاعر تؤكد استحالة وجود حالة سلام مع إسرائيل، ورفض قبولها ككيان فرض بالقوة لا بالقبول. الطريق الذي تسلكه الولايات المتحدة إذًا وعر ومملوء بالعقبات، ونهايته لا بد أن تكون خرابًا إذا استمرت على هذا المسار.

أخطر ما في هذه المعادلة الحرمان من حق الشعوب في التقدم. فبدلًا من أن تكون القوة وسيلة لحماية السلام، تحولت إلى وسيلة لفرض الصمت، وبدلًا من أن تكون العدالة مرجعية أصبحت الهيمنة المرجع الوحيد. آن الأوان أن يدرك الأمريكيون والغرب وإسرائيل أن القوة لا تصنع سلامًا حقيقيًا، وأن العلاقات بين الشرق والغرب لا يمكن أن تظل غير متكافئة إلى الأبد، ولا أن يُبنى الحوار على أساس الخوف أو تُفرض التعايشات تحت مظلة القلق والتبعية.

إن الحديث العربي المستمر عن شراكات استراتيجية مع الولايات المتحدة يشبه التعمية عن الحقيقة فمرجعية العرب ينبغي أن تنطلق من مصالحهم، ووحدتهم التي باتت الآن ضرورة لا بد منها. فترك إسرائيل تعيث في بلاد العرب والمسلمين خرابًا وتدميرًا هو تساهل ستكون نتيجته كارثية، تتمثل في بقاء العرب جاثمين في ذيل الأمم، ضعفاء لا يملكون قرارًا ولا يستطيعون التحرك أمام من يوجه إليهم الصفعات.

○ كاتب وباحث أكاديمي